المحاضرة الرابعة:
في قصيدة التفعيلة

أولا: تعريفه وقد عرفت نازك الملائكة هذا الشعر بقولها: "هو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت، وإنّما يصحّ أن يتغيّر عدد التفعيلات من شطر إلى شطر، ويكون هذا التغيير وفق قانون عروضي يتحكم فيه"[1].

ثانيا: تسميته: ولقد تباينت تسميات هذا الشعر بين الشعر الحرّ وشعر التفعيلة والشعر المنطلق، والشعر المرسل، والشعر الجديد. ولعلّ مصطلح شعر التفعيلة هو أدق وأصلح هذه المصطلحات، وذلك لأنّه يصف نظامه العروضي الّذي يلتزم بإيقاع الشعر العربي[2].

ثالثا: بحوره: يصنف النقاد المعاصرون البحور الّتي ينظم عليها شعر التفعيلة إلى صنفين:

1. **البحور الصافية:** وهي تلك البحور التي تقوم على تفعيلة واحدة تتكرر حسب الحاجة النفسية للشاعر. وهذه البحور هي: الكامل، الوافر، الرمل، والهزج، والرجز، والمتقارب، والخبب، والمتدارك.
2. **البحور الممزوجة:** وهي بحور تقوم على تفعيلتين. التفعيلةُ الأولى تتكرر حسب رغبة الشاعر، وينهي هذا التكرار بالتفعيلة الثانية. وهذه البحور هي السريع، والوافر المقطوف، والكامل الأحذ.

❖ **ملاحظة**: للبحور المركبة- كما ترى نازك- لا تصلح لهذا الشعر. وهي: الطويل والمديد والبسيط والمنسرح؛ لأن الوحدة الوزنية لكل بحر من هذه البحور مكونة من تفعيلتين[3].

رابعا: تطوّر شعر التفعيلة في الشعر المعاصر:

ولقد مرّت القصيدة العربية في تعاملها مع الوزن بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: وكان الحفاظ فيها على الوزن التقليدي مع إعادة توزيع القصيدة في كتابتها[4]، من ذلك مثلا نزار قباني في أعماله الأولى كما هو ظاهر في المقطع الآتي من قصيدته (الضفائر السوداء):

يا شعرها على يدي شلال ضوء أسود ألمه سنابلا	سنابلا لم تحصد لا تربطيه واجعلي على المساء مقعدي	حيث يمكن إعادة كتابة هذا المقطع على النحو الآتي:	يا شعرها على يدي ألمّـــه سنـــابلا لا تربطيه واجعـلي	شـلال ضوء أسود سنابـلا لم تحصد على المساء مقعدي

المرحلة الثانية: وهي المرحلة الّتي تمّ فيها تفتيت الوحدة العروضية التقليدية إلى تفاعيل تمثّل وحدات تخضع في طولها للانفعال الشعري، وتكتب في سطور شعرية متفاوتة الطول والقصر. وهذه المرحلة نجدها عند أغلب الشعراء تقريبا، مع ما تخلّلها من تجارب في التفاعيل المفردة والمركبة، ومثالها هذا المقطع لبلند الحيدري من قصيدته (الهوايات العشر):

هذا اسمي
هذا رسمي

---

[1]- نازك الملائكة، قضايا الشّعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ص 142.

[2] - إنّ تسميته بالحرّ أو المنطلق قد أسهم في جعل البعض يظنّ أنّ هذا الشعر الجديد لا يحتكم إلى أي وزن وإيقاع.

[3]- بحر الطويل، أيضًا لبدر شاكر السياب تجربة وحيدة حول استخدام هذا البحر في شعر التَّفعيلة، ولكن تجربتهُ غير جائزة، لأنَّ بحر الطويل يأتي دائمًا تامًّا غير مشطور أو مجزوء. نفسه، ص: 68-69.

[4] - وبالتالي في القراءة بطريقة تتناسب مع الحجم الصوتي والتطور الانفعالي.

هذا ختم مدير الشرطة في بلدي
هذا توقيع وزير العدل وقد مدّ به زهر حزّ فمي
وأطاح بسنّ من أسناني[5]

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الموجة أو الدفقة الشعرية حيث اعتبر الشاعر هذه الموجة تعبيرا عن الموجة الانفعالية المتكاملة. وقد اتسعت هذه الموجة لتشمل عدد أكثر من التفاعيل كما هو الحال عند يوسف الخال وعبد الوهاب البياتي وأمل دنقل الّذي يقول في قصيدته (الأرض... والجرح الذي لا ينفتح):

الأرض ما زالت، بأذنيها دم من قرطها المنزوع
قهقهة اللصوص تسوق هودجها.. وتتركها بلا زاد،
تشد أصابع العطش المميت عن الرمال،
تضيع صرختها بحمحمة الخيول.
الأرض ملقاة على الصحراء.. ظامئة
وتلقي الدلو مرات.. وتخرجه بلا ماء!

خامسا: القافية في شعر التفعيلة

ولقد أكدّت نازك الملائكة منذ البداية على أهمية القافية ودورها في موسيقى شعر التفعيلة، حيث قالت: "تعتبر القافية إذن عنصراً ضرورياً في ايقاع الشعر العربي ، وركناً مهماً في موسيقية الشعر الحر نظراً لما تحدثه من رنين وما تثيره في النفس من أنغام وأصداء"[6].

أنواع القافية:

لم يعد للقافية نظام ضابط يحكمها، ممّا صعب على النقاد تحديد أشكالها الّتي تأتي عليها، حتّى أنّ بعضهم لم يشر إلى أنواعها تماما. ورغم هذا الانفلات للقافية من عقال الوزن إلاّ بعضا من النقاد قد سعى إلى تحديد الأشكال الّتي تأتي عليها، ولعلّ أهم أنواعها هي:

1- **القافية البسيطة (الموحدة):** وهي القافية القريبة في صورتها من القافية في الشعر العمودي، ولكنها هنا في شعر التفعيلة تتكرر في نهاية كل سطر. ومثالها قصيدة "انتظار" للشاعر عبد الوهاب البياتي: صلّي لأجلي / عبر أسوار
وطني الحزين، الجائع، العاري
وعلى رصيف المرفأ انتظري/ -يا كوكبي الساري
وحديث سماري [7].

2- **القافية المتتابعة (المتوالية):** وهي القافية الّتي يتوالى فيها الروي على سطرين أو ثلاثة أسطر، ثمّ ينتقل الشاعر إلى روي آخر ليفعل معه ما فعل مع الروي الأول أو ما يقارب ذلك، ومن أمثلتها قول أحدهم: قدّه يجلو علينا مبسما لو يملك البرق اختيارا
قبَّل البرق ثناياه اضطرارا
ثمّ خبِّرني بما يحكمه الحاكم ما بين لئاليه
دع الحكم لباريه
سما كلّ من الأمرين قدرا

3- **القافية المتناوبة:** وتقوم على التوزيع الهندسي للقوافي الّذي تتناوب فيه القوافي وتتقاطع في أكثر أجزاء القصيدة بطرق شتّى أشهرها (أ ب أ ب). ومن أمثلته هذا المقطع من قصيدة فدوى طوقان (حمزة): قال لي حي التقينا ذات يوم

---

[5] - فالتفعيلات في هذه السطور الشعرية تراوحت بين تفعيلتين في السطر الأول والثاني إلى تسع تفعيلات في السطر الرابع.

[6] - قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، ص١٩٢.

[7] - أباريق مهشمة، دار العودة، 1970، بيروت: 49-51

وأنا أخبط في تيه العزيمهْ
اصمدي لا تضعفي يا ابنة عمّي
هذه الأرض الّتي تحصدها نار الجريمة[8]

☒ **التشكيل الموسيقي لشعر التفعيلة:** يتميّز التشكيل الموسيقي لشعر التفعيلة بالسمات الآتية:

1- التفعيلة هي الوحدة الأساسية الّتي يتشكّل منها شعر التفعيلة.

2- يعتمد شعر التفعيلة على نظام الأسطر، فليس في شعر التفعيلة شطران، بل سطر واحد.

3- لم يعد شعر التفعيلة يلتزم بعدد معين من التفعيلات في السطر الواحد؛ فقد يكون السطر مكوّنا من تفعيلة واحدة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو أكثر. من ذلك مثلا هذا المقطع الشعري للشاعر محمود درويش:

والآن ، ألفظُ قبل روحي	مستفعلن متفاعلن مس
كلَّ أرقام النخيل	تفعلن مستفعلن م
وكلَّ أسماء الشوارع والأزقَّة سابقاً أو لاحقاً	تفعلن مستفعلن متفاعلن متفاعلن مستفعلن
وجميعَ مَنْ ماتوا بداء الحب والبلهارسيا	متفاعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن
والبندقيَّهْ	مستفعلاتنْ
ما دَلني أحدٌ عليكِ	مستفعلن متفاعلن م
وأنتِ مصرُ	تفاعلاتنْ

4- تحرّر شعر التفعيلة من الالتزام بالقافية، حيث أصبح الأمر متروكا للشاعر وتجربته، فقد يجيء بها، وقد يلزم نفسه بنظام معيّن يصنعه هو لها، وقد يتحرّر منها. من نحو هذا المقطع للشاعر محمد ابراهيم أبوسنّة (مائدة الفرح الميّت):

ينبت ضلّي في مرآة الحائطْ
ينبت ظلُّك في مرآة السّقْفْ
نتواجه، نجلسُ
نقتسم الصّمت وإقداح الشاي الباردْ

5- لم يعد التحريد عيبا من عيوب القافية في شعر التفعيلة، فالشاعر المعاصر لا يلتزم بضرب واحد، بل ينوّع فيه كما يريد. من نحو هذا المقطع للشاعر محمود درويش (عودة الأسير):

حجارة أكون، لو رجعت للوراء	مفاعلن مفاعلن مفاعلن فعولْ
حجارة أكون أو رجوم	مفاعلن مفاعلن فعولْ
سوخي إذن، في الرمل، سيقان الندم	مستفعلن مستفعلن مستفعلن
لا تتبعيني نحو مهجري نشدتك الجحيم	مستفعلن مستفعلن مفاعلن مفاعلان

6- لم يعد التضمين عيبا من عيوب القافية في الشعر المعاصر بل أصبح من أهمّ خصائصها الشعرية، فشعر التفعيلة يعتمد بشكل كبير على تقنية التدوير(سيأتي الحديث عنه لاحقا) في بناء نظامه الموسيقي، ومثاله الشاعر حميد سعيد في قصيدته المقطعية (الفرح المستحيل): صنع امرأة من تراب الفرات

وحاول أن يصطفيها،
وأن يوقظ الوجد فيه
لقد أيقظ الوجد فيها.

7- لم يعد الإكفاء والإجازة والإقواء والإصراف من عيوب القافية في الشعر المعاصر، لأنّ الشاعر له الحرية المطلقة في استخدام الروي والمجرى، فهو ينوّع فيهما بالشكل الّذي يراه مناسبا.

[8] - فدوى طوقان: الديوان، ص541.